ماهية العولمة و المدرسة كمؤسسة اجتماعية

أ. عبد الوافي بوسنة
قسم علم النفس –جامعة محمد خيضر

مقدمة:

ما فتئت البشرية تشهد تغيرات عديدة وفي شتى المجالات، خاصة في أواخر القـرن العشـرين، ولعل كل هذه المستجدات كان مصدرها العولمة. هذه الأخيرة وإن يطلق عليها البعض الكوكبـة، تعني بالمفهوم العام توحيد العالم أي كوكبته.

لقد فرضت العولمة على الشعوب خاصة الضعيفة منها هيمنة كلية، إذ جعلتها أسيرة لنظمهـا ومظاهرها. كما انتشرت هذه الهيمنة ومست كل الميادين منها ميدان التربية والتعليم، ووصـلت إلى حد المدرسة التي هي مؤسسة اجتماعية لها دورها الحاسم في دفع عجلات المجتمع.

- فماذا نعني بمصطلح عولمة؟ وما هي أبعاده؟
- وما هي أثاره على المؤسسات الاجتماعية، وفي مقدمتها المدرسة؟

أولا- مفهوم العولمة:

لغة: يعود اصل كلمة العولمة إلى المصطلح الفرنسي Mondialisation الـذي يعـني العالميـة. نستطيع القول أن المصطلح في حد ذاته اقتصادي الجوهر لكن تعدى فيما بعـد إلى عـدة ميـادين وأنشطة. فالكلمة الفرنسـية Mondialisation والكلمـات المرادفـة لهـا في اللغـات الأجنبيـة مثل:Universel، Planétaire كلها تدل على النطاق الجغرافي أو الإقليمي. أما الكلمـة الإنجليزيـة Globalisation فتدل على وجهة نظر استراتيجية، جغرافية واقتصادية، ولها دلالة أوسع من الكلمـة الفرنسية التي تعني انتشار مظاهر الحضارة في العالم ككل.إن العولمة مشتقة من الكلمـة الإنجليزيـة Globalisation المشتقة بدورها من كلمة Globale بمعنى الكرة الأرضية أو الكوكب الذي نعـيش فيه.

كما هناك من يعتبر العولمة ترجمة لكلمة Mondialisation التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود والمقود به العالم. فالمعنى اللغوي للكلمة يفيد التعميم والانتشار لنمط معين سواء في الاقتصاد، السياسة أو الثقافة...

اصطلاحا: تكاثرت التعاريف والمفاهيم لمصطلح العولمة وأصبح محل نقاش بين المفكرين في شتى الميادين. فمنهم من يراه عملية إقامة نظام دولي يتوجه نحو التوحيد في القواعد والقيم والأهداف، مع ادعاء إدماج مجموع الإنسانية ضمن إطاره.

العولمة مجموع العمليات التي تغطي أغلب الكوكب أو تشع على مستوى العالم، من هذا لها بعد مكاني، لان السياسة والأنشطة الاجتماعية الأخرى أصبحت تبسط رواقها على كل إرجاء العالم (السيد.ي: 1998 ص06)

ويعرف عبد المنعم حفني العولمة بقوله:" إن العولمة هي رسلة العالم، وتتم السيطرة عليه في ظل عامية المركز وسيادة نظام العالم الواحد، وبذلك تتهاوى الدول القومية وتضعف فكرة السيادة الوطنية و سيطرة الثقافة العالمية.(حفني:2000ص268)

يتفق العديد من علماء السياسة و علم الاجتماع و الإعلام، على وصف العولمة أنها مسار وديناميكية كوكبية، تاريخية، تحديثية...إنها ليست محض مفهوم مجرد، فهي عملية مستمرة يمكن ملاحظتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة، الاقتصاد، الثقافة والاتصال(السيد.ي 1998ص06) ولعل مفهوم العولمة انتشر في العقد الأخير بالترويج لظاهرة اقتصاد السوق الحر بعد انهيار النظام الاشتراكي في أوروبا الشرقية، وتوافق مع مفاهيم أخرى لنفس الغرض مثل: نهاية التاريخ، الإدارة العليا، حقوق الإنسان، المجتمع المدني، صراع الحضارات. والتي تعني كلها الجنساوية.(حنفي.ح 1999ص04)

ثانيا- أبعاد العولمة:

1- البعد الاقتصادي:

من المنظور الاقتصادي يشير المفهوم إلى تحول العالم إلى منظومة من العلاقات المتشابكة، والتي تزداد تعقيدا لتحقيق نظام اقتصادي واحد فيه يعتمد العالم بعضه على بعـض في تبـادل الخـدمات والمنتجات وغيرها. بمعنى التفاعل بين عناصر اقتصادية منها المنتجات والأسواق ورؤوس الأموال.

فهي في مظهرها الأساسي تكتل اقتصادي للدول الصناعية للاستثمار في ثروات العالم.

يمكن تلخيص القوى والعوامل الاقتصادية فيما يلي:

- ازدياد حجم التجارة الدولية.
- تحرير التبادل التجاري والخدمات.
- تحرك رأس المال دون حواجز وبحرية.
- اتساع دور الشركات المتعددة الجنسـيات Multi national corporations والمؤسسـات المتخطية الحدود Transitionnal corporation.
- ظهور ما يسمى الاقتصاد المتشابك Niterlinked economy، إذ ينتقل التفكير من النموذج المثلث الاستراتيجي: زبون، منافس، شركة إلى النموذج الخماسي بإضافة العملة والدولة.
- قيام العديد من الشركات بإنتاج السلع الكونية، تقدم لمستهلك أو زبون كوني أينما وجد على سطح الكون.
- اشتداد المنافسة بين الدول والشركات التي تعمل على زيادة ميزاتها التنافسـية، وشـيوع الخوصصة في العالم Privatisation.

تأتي العولمة الاقتصادية في الأساس لتعارض مفهوم الاقتصاد الوطني، وهذا ما تواجهه الـدول العربية في عصر العولمة فهي تتعرض إلى خطر تآكل قدرتها على إدارة اقتصادها الـوطني. في مقابـل ذلك نجد الدول الغربية تستعمل صندوق النقد الدولي الذي تتحكم في إدارته كوسيلة مثلى للسيطرة والهيمنة على باقي دول العالم. ففي كل الحالات التي منح فيها المهيمنون على الصندوق قروضا، إلا وربطوها ببند إطلاق سعر صرف عملة البلد المقترض وانفتاحه على سوق المال العالمية، خاصـة في العشر سنوات الأخيرة(مارتين.ه.ب، شومان.ه 1998ص100)

إن المفهوم المطروح للعولمة من طرف الدوائر الاقتصادية الدولية هو مرادف لتوحيد العالم عـن طريق السوق، تأخذ فيه الدول الصناعية دور البائع، ودول العالم الأخرى دور المشتري دون خطوط دفاع أو استراتيجيات حماية.

ولعل هذا ما يعمق سيطرة الدول الصناعية على الدول المستهلكة ويجعلها دوما خاضعة للتبعية. مما سبق ذكره، تعد العولمة الاقتصادية من ابرز أشكال الهيمنة الراهنة وذلك عن طريـق مؤسسـات عالمية مثل: صندوق النقد الدولي، منظمة التجارة الدولية، البنـك العـالمي، الشـركات المتعـددة الجنسيات والتي تتحكم فيها الدول القوية صناعيا واقتصاديا لخدمة مصالحها، بالتالي يزيد الفقير فقرا ويزيد الغني غناء.

2- البعد السياسي:

يمكن للعولمة أن تتجلى سياسيا في الميل الواضح نحو مصطلحات شاع تداولها كالديمقراطيـة، التعددية السياسية، احترام حقوق الإنسان، تقهقر الشمولية التسلطية.

إن العولمة السياسية تعني نشر مفاهيم الديمقراطية الليبرالية، وما يصاحب ذلك من رفض وإنهاء السلطوية والشمولية في الحكم وتبني التعددية السياسية، الالتزام باحترام حقوق الإنسـان وكـذلك استخدام الأمم المتحدة لحماية حقوق الإنسان في العالم، والحماية الدولية للإقليميات والتدخل الدولي الإنساني وغيرها من آليات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد.(السيد.ي: 1998ص12)

من المنظور السياسي ترى العولمة أن الدولة لا تكون هي الفاعل الوحيد على المسرح السياسي العالمي، بل توجد إلى جانبها هيئات ومنظمات عابرة للحدود تسعى إلى تحقيق المزيد من الانـدماج الدولي. وهذا ما يجعل مهام الدولة في الحفاظ على سيادتها تتآكل وتتقلص، والسبب في ذلك الانتقال الحر للسلعة ورؤوس الأموال، وهو ما حدث لعدد من الدول العربية التي فقدت السيادة الداخلية.

لقد أصبح سماسرة السوق يؤثرون تأثيرا بعيد المدى على القرار السياسي، ويؤثرون في مستقبل مجتمعات بأسرها. فمهمة الدولة في عصر العولمة تسهيل الطريق أمام الشركات المتعددة الجنسـيات، ولو كان ذلك بأثمان باهظة التكاليف وذلك بإعفائها من الضرائب أو التقليل منها، مـا يـؤدي إلى

تقليص الإنفاق الحكومي على الرعايا و الخدمات العامة، هذا ما يقابله تدمر الشعوب من حكوماتها (مارتين.ه.ب،شومان.ه: 1998ص370)

لم يبقى الحديث عن الدولة ساري المفعول بل يحل محله الكلام عن أجنحة المافيا المتصارعة و المؤثرة في القرار السياسي. فالاستقرار السياسي هو الضمان للعولمة حتى لا تأتي بقرار فوقي أو انقلاب، لذلك فهي تتطلب قدر كبير من الحرية و الديمقراطية والتعددية الحزبية، فالحرية الاقتصادية تتطلب حرية سياسية لكن الواقع ليس كذلك.

إن الدول الكبرى تؤيد أبشع أنواع الحكم الاستبدادي والتسلطي رغم أنها تتظاهر بالحرية والديمقراطية. في مقابل هذا، ترى أن الدول التي ترفض الخضوع لدول الغرب بتمسكها بالسيادة الوطنية وتأمينها للاستقلال الوطني من اجل حماية محدودي الدخل، تسلط عليها عقوبات وقد يفرض عليها حصار مثلما جرى لبعض الدول العربية.

3- **البعد المعلوماتي:**

تمثل تكنولوجية المعلومات و الاتصالات خاصة، قوى دافعة للعولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية. كما تتقلص أبعاد الزمان والمكان وتتضاعف التجارة بأنواعها باستخدام الكومبيوتر والشبكة الدولية للمعلومات والاتصالات. هذا ما يؤكد الدور الكبير لوسائل الاتصال في نشر العولمة بجميع مظاهرها، إذ نجد مؤسسات احتكارية إعلامية وسلاسل إعلامية تملك كل الوسائل التقنية من أقمار صناعية وشبكات اتصالات حولت العالم إلى قرية واحدة.(المنير.م.س: 2000ص130)

إن دول الغرب تستعمل الإعلام لفرض الهيمنة ومد نفوذها، كما تستعمله لتعزيز نهجها واستمرارها حتى ولو كان على حساب التجسس على أسرار الشعوب، وفي هذا تهديد مباشر للأمن القومي الوطني للدول النامية المفضوحة والمعروفة أسرارها، بما يشكل ضغوطا واضحة على صناع القرار السياسي لهذه الدول.

لعل سباق اليوم هو لأجل التحكم في تدفق المعلومات ومصادرها، والقدرة على توجيهها وفقا لمصالحها، فمن يملك المعلومة والقدرة على توظيفها إنما يملك مفاتيح المعرفة التي تسمح بالتقدم في مجالات الصناعة، التجارة، الخدمات والتسويق.

من خلال ما سبق، فمن يسيطر على وسائل الإعلام يمكنه السيطرة على مجريات الأحداث في العالم دون الاعتماد على القوة أو الحروب، بفضل العولمة الاتصالية التقنية المعلوماتية، مـن خـلال شبكة الانترنت.(السيد.ي1998ص32)

4-البعد الثقافي:

إن الثقافة تعد ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفـن والأخـلاق والقـانون والعادات، أو قدرة يكتسبها الإنسان في المجتمع،كما هي حلقة وصل بين الدين والقيم الروحية.

على الرغم من أن العولمة الثقافية لا ترقى إلى مستوى اكتمال العولمة الاقتصادية، إلا أن الواقع يفرض التسليم با. إنها تسعى إلى الحد من مظاهر الحضارات الإنسـانية بواسـطة بـث ثقافـات استهلاكية على عشرات الأقمار الاصطناعية والقنوات التلفزيونية.

تأتي العولمة الثقافية لتشيع أنماط الاستهلاك الغربية، تقوم بترويج الصناعات والمنتجات الصناعية، كما تصور الحياة على أنها الرفاهية (حنفي.ح:1999ص28)

فالعولمة بذا المفهوم هي سيطرة الثقافة الغربية على سائر الثقافات وبالضبط الثقافة الأمريكيـة، أو ما يسمى ثقافة هوليود التي بلغت ما بلغته من انتشار وشيوع. فكل صورة تبث تلقى من الاهتمام الكثير،وكل شيء يكتب أو يقال، إنها العولمة الثقافية.

هذه الأخيرة، إيديولوجيا تريد أن تفرض نمطا معينا باسم العالمية والإنسـانية، وذوبـان كـل الثقافات والحضارات، ومن ثمة تكوين ثقافة العالم.

لا توجد ثقافة عالمية واحدة إلا ثقافة المسيطر الذي يمتلك أدوات إبداعها ونشرها، فالثقافـة لا تكون إلا خاصية مرتبطة بحضارة وشعب ولغة(حنفي.ح:1999 ص23)

يمكن الحديث عن الغزو الثقافي دون العولمة الثقافية لان الثقافة في تطور مستمر، تستند علـى الحاضر والماضي، ولو سلمنا بنهاية الثقافة ووصولها إلى قانون ووحدة، سنسلم بمقولة نهاية التاريخ.

5- البعد التربوي:

ما تزال التربية قائمة ولا يستطيع احد القول بنهايتها أو حتى مجرد التكهن بذه النهاية، بل هي في عصر التحديات في قلب الاهتمامات و الأولويات.

هذه التربية بيد من؟ هل هي بيد الحكومات التي بدأ يفلت منها الزمام من جراء العولمة؟

وهل ستكون في خدمة المجتمع أو في خدمة رجال المال والاقتصاد؟

إنها أسئلة كثيرة ومقلقة ومع ذلك ستظل مطلب الأجيال.(مرسي.م.م1993ص391)

من المتوقع كما أكده العديد من الباحثين تزايد الاهتمام بالتربية في عصر التحديات، عصـر التكنولوجيا و المعلومات ليأخذ الطرح التربوي مداه.

فالولايات المتحدة تسعى إلى عولمة التربية تحت شعار حماية حقوق الإنسان، وهي في الحقيقـة هدفها نجاح عولمتها الثقافية، حيث يكثر مستهلكي قيمها وأخلاقياتها عن طريق التربية. وبواسـطة هذه الأخيرة يمكن تنمية النزعات الاستهلاكية للصغار زبائن المستقبل.

أما العالم العربي فقد انتابه نوع من القلق على التربية وإحساس بأهميتها في هذا العصر، خاصـة وان الشعور السائد أن الأزمة التي تعاني منها المجتمعات العربية هي في الأساس أزمة تربوية.

يبقى هذا العالم في حاجة إلى التربية بدرجة لا تقل أهمية عن المجتمعات المتقدمة، والتربية هـي المخرج للازمة التي تعاني منها والطريقة الآمنة لتحقيق التنمية الشاملة.

ثالثا-المدرسة مؤسسة اجتماعية:

المدرسة مؤسسة اجتماعية أنشأها المجتمع لتقابل حاجة من حاجاته الأساسية، وهي تطبيع أفراده تطبيعا اجتماعيا يجعل منهم أفرادا صالحين في المجتمع. أما المؤسسة الاجتماعية فلها مفهوم ولها تكوين حسب وليام غراهام سمنر. المفهوم معناه فكرة أو اتجاه أو مبدأ أو اهتمام يكون الأساس الذي تقـوم عليه هذه المؤسسات، والذي يمكن أن نجده في كل المجتمعات بشكل ما.

أما التكوين structure فهو الإطار الذي يضم عددا من الوظائف التي تتعاون بطرق معينـة في وقت معين.(النجيحي.م.ل: 1978ص53)

إن المفهوم والتكوين في المؤسسة الاجتماعية جزءان من كل وظيفي متكامل، ويعتبر كلباتريك w.h.Kilpatrick المؤسسات الاجتماعية جميع التنظيمات الاجتماعية التي تنظم علاقات الأفراد بدف تحقيق حياة أفضل.(النجيحي.م.ل: 1978ص54)

كما تعد وظائفها مختلفة في المجتمع، منها تيسير العمل للأفراد وتنظيم عدد كبير مـن المظـاهر السلوكية في نمط واحد متكامل. لهذا لا بد لها أن تقاوم التغير الاجتماعي على أساس أنها تجري على وتيرة واحدة وبانتظام، هذا الأخير ينظر إليه على انه تهديد للمؤسسة الاجتماعية و أنماطها السلوكية.

ففي المدرسة مثلا: لا ينبغي تربية الأطفال تبعا للوضع الراهن، إنما تبعا للوضع المستقبلي المتوقع تماشيا مع فكرة الاتجاه الكلي للإنسانية(E.Kant: 1989p79)

المدرسة وحدة اجتماعية يجب تميزها عن الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه، توجد أين يوجد مدرسون وتلاميذ للتعليم والتعلم بالإضافة إلى أن التعليم الذي يجري داخلها هو تعليم شكلي يكون في الفصل. تتشكل الوضعية التعليمية خاصة من جماعتين أو أكثر في وسط مؤسساتي أو خاص، بغية فعل تقوم به إحدى الجماعات على الأخرى. (G.Mialaret: 1991p51)

عندما نحلل المدارس الحاضرة نجدها تتميز بمميزات خاصة، يمكن علـى أساسـها دراسـتها كوحدات اجتماعية مستقلة وتتمثل في:

- تضم المدرسة أفرادا معينين هم المدرسون الذين يقومون بعملية التعليم والتلاميذ الذين يتلقون التعليم. وقد يخضع هؤلاء التلاميذ في بعض أنواع المـدارس إلى عمليـة انتقـاء وغربلة.

كما تجدر الإشارة أن اصطلاح "المدرس الجيد" لا يخص فقط ذلك الذي يحسن الإيصال بـل الذي يقوم بمهمة التربية أيضا.(G.Mialaret1991p113) إذ أن المدرس ينتمي إلى فئـة معينـة لهـا تاريخها ومقوماتها الأكاديمية.

- تتميز المدرسة بنظام سياسي واضح التحديد، فطريقة التفاعل الاجتماعي التي تتمركز حـول القيام بالتعليم واستقباله تحدد النظام السياسي للمدرسة، كذلك العملية التعليمية داخلها تتكون مـن حقائق ومهارات واتجاهات وقيم أخلاقية.

إن المدرسون يعتبرون أنفسهم مسؤولين أمام المجتمع، لان النظام الإداري مازال يعتبر نجـاح المدرس في مهمته رهن بعدد الناجحين، بصرف النظر عما اكتسبوه من مهارات وميول واتجاهـات، فحسب روسو ليس بالا مكان فصل الأهداف البيداغوجية عن الأهداف الفلسفية، السياسية، الدينية أو الأدبية.(G.Avanzini1989p13)

- المدرسة نقطة التقاء عدد كبير من العلاقات الاجتماعية المتداخلة المعقدة، هذه الأخيرة هـي المسالك التي يتخذها التفاعل الاجتماعي والقنوات التي يجري فيها التـأثير الاجتمـاعي. حسـب كانطE.Kant ، وعلى النطاق التربوي لابد للفرد أن يكون مؤدب لا يواكب الوحشية، مثقـف في مختلف المجالات وحذر بمعنى متكيف، محبوب ومؤثر في الآخرين.(E.Kant1989p82)

يمكن تحليل العلاقات الاجتماعية المركزة في المدرسة على أساس الجماعـات المتفاعلـة فيهـا والمتمثلة في المدرسين والتلاميذ، لكل منها دستورها الأخلاقي واتجاهاتها وعاداتهـا نحـو المجموعـة الأخرى. والتأثير الاجتماعي الذي تمارسه المدرسة هو نتيجة تأثير هذه الجماعات على الفرد وعلـى شخصيته.

- إن المدرسة تتميز عن العالم المحيط با بالروح التي تسودها وهي الشعور "بالنحن"، فأولئـك الذين يرتبطون بالمدرسة يشعرون أنهم جزء منها ، وأنها تمثل في حياتهم فترة هامة يشـعرون أنهـم يرتبطون با بشعور واحد.

- كما تعرف المدرسة بثقافة خاصة، هذه الأخيرة تعد في جزء منها من خلق التلاميذ من أعمار مختلفة وفي جزء منها من خلق المدرسين. والأنماط السلوكية المعقدة التي تتركز حول المدرسة جزء من ثقافتها الأخرى.

إن المدرسة مؤسسة متخصصة داخل المجتمع ولها وظائفها الخاصة المناسبة لها. وعندما تحـاول المدرسة أن تعكس كل أوجه النشاط الموجودة في المجتمع، تكون النتيجة درجة عالية من السـطحية ونوع من التمثيل.(النجيحي م.ل1978ص62)

لقد تراكم على المدرسة المسؤوليات وناء كاهلها بالأعباء، فلم تعد مهمتها تقتصر على الناحية العقلية بل تطورت إلى العناية بالسلوك والاتجاهات والمواطنة الصالحة بصـفة خاصـة. وإذا أردنـا للمدرسة أن تقوم بعملية التربية، لابد أن تخفف من أعبائها وتلقـي ببعضـها علـى المؤسسـات الاجتماعية الأخرى كالأسرة والمسجد.

قائمة المراجع

1- المنير.م.س:العولمة عالم بلا هوية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، 2000.

2- النجيحي.م.ل، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1978.

3- حنفي.ح، ما العولمة؟، دار الفكر المعاص، بيروت، 1999.

4- مرسي.م.م، تاريخ التربية في الشرق والغرب،مطبعة عالم الكتب، القاهرة،1993.

5- حنفي.ع، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية،ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000.

6- السيد.ي:" في مفهوم العولمة"،مجلة المستقبل العربي العدد228، 1998.

7- ماتين.ه.ب،شومان.ه، فخ العولمة،مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1998.

8- Avanzini.G :Introduction aux sciences de l éducation, Ed, privat.Toulouse , 1987.

9- Kant.E:Réflexions sur l éducation, librairie philosophique j.vrin , paris,1989.

10- Mialaret.G :La psycho pédagogie, 2eme édition, puf, paris, 1991.